جديد او جويس جديد في هذه اللحظة . ولكن يجب ان يكون عندنا احد ما « يحافظ على حضارتنا من ان تصبح محض اجتماعية » في الوقت الحاضر ، ويجب ان تستمر بعض المجلات « لابقاء الطرق مفتوحة » حتى الوقت الذي يظهر فيه مثل هذا، هو وامثاله . وعندما افكر بهذا اكف عن الشعور بانني في طريقي الى الزوال .

روبي مكولي

المجلة الثقافية وتطوير الحضارة

كل نمو هو نتيجة للحرية . والحضارة تنمو او تحدّ استنادا الى مدى ترحيبها بالافكار الآتية من الخارج ، او الى مدى حريتها بالغوص في اعماق ذاتها بحيث تجدد النظرات التقليدية وتقولبها باسلوب العصر . والحضارة هي ايضا حالة تتميز بالفعالية الدائمة ، غير المترابطة احيانا : والدينامية والثقافة كلمتان يغلب ذكرهما معا ، ويؤكدان مقياس الصحة والنمو في حضارة ما . وهناك طريقة اخرى في النظر للحضارة ، هي معرفة مقدار حساسيتها تجاه التحيزات – باي شكل كانت – ومقدار مقاومتها للقبول غير النقدي للافكار المسلم بها ، او – من الناحية الاخرى – سهولة خضوعها لاية فكرة تعرض بشكل سلبي : اي فكرة يصحبها التطرف والعنف والتعصب عند اتباعها . ومن افضل مقاييس الحضارة في الواقع قدرتها على عزل او تجريد التعصب السلبي من قوته . ولتوضيح ذلك ، يمكننا تقسيم الحضارات الى صنفين : حضارات منفتحة او ايجابية او متقبلة ، وحضارات منطوية او سلبية او رافضة .

ان الحضارات المنفتحة حضارات متقبلة ، تجريبية ، قوية ، متحدية . انها تجذب الانتباه وتستقطب التجريبيين . ولعلها تستوعب قدرا كبيرا من الوسائل والاساليب من خارج مداراتها ، وتستعملها لاغراضها الخاصة . انها جديدة ،ولكنها تعمل مع ذلك على قاعدة من الثقة التراثية في العلاقات الانسانية . وهي ليست في حالة فوضى . ان كثيرا من الحضارات « الجديدة » تعرض سائر الصفات التي ذكرناها ، ولكنها لا تصبح مع ذلك حضارات حقيقية لأن مصدر فعاليتها يكمن في خلق الفوضى والاختلال الذي يغطيه ستار براق من الاتجاه الراديكالي لدى الحكومة (في السياسات الاقتصادية مثلا) مما يخدع المراقبين من الخارج فيحسبونه دليلا على الدينامية ، بينما ليس هو في الواقع اكثر من فوضى متحجبة. ان مثل هذه الحضارات المنفتحة ظاهريا فحسب موجودة اليوم في اقطار عديدة .اما الحضارات المنفتحة فعلاً فهي تلك التي تعمل انطلاقا من شعور بالثقة ، لا من شعور بالخوف او بالنقص .

والحضارات المنطوية اسهل على التعريف . فهي تشبه العوانس المكبوتات في الاسرة . انها ناقدة عاذلة تميل الى الجمود الفكري ، والغرور ، والرضى عن النفس ، والعزم على المحافظة على « التقاليد » . وتتميز الحضارة المنطوية عادة عن عهد يحتضر في حضارة معينة ، عن حضارة تلفظ انفاسها الاخيرة – حيث تؤدي نسمة واحدة من الهواء الطلق الى بعثرة مظاهرها البراقة.وهناك عدة امثلة على هذا النوع من الحضارات في هذه الايام.ان الحضارة المنطوية ، في هذا المجال ، ليست حالة مستمرة دائمة بل حالة تشير الى ان التعبير الاخير قد استهلكت قوته وان من الواجب اختراع مفردات جديدة وتوسيع حدود التعريفات .

ثمة نوع ثان من الحضارات المنطوية . وهذا يوجد في البلد الحديث جدا ، الذي تكتب فيه كلمة الانطواء بحروف كبيرة ، وتصر الحكومة او المجتمع فيه بقوة على الاشياء التي لا يمكن فعلها، او التي لا ينبغي فعلها، وربما تكون مجتمعات كهذه قد خططت سياستها بعناية في كل مجال من مجالات فعاليتها ، كما انها تظهر قدرا فائقا من الدقة في حاجتها للسياسات المتبعة . ولكن في اي بلد يكون فيه التخطيط مرادفا للتقدم ، وتتخذ كلمة التخطيط طابعا من الحتمية الصوفية ، فانها تتسع حتما لتشمل كل مجالات الفنون والثقافة.ولكن الاغراء هنا من الشدة بحيث لا يسمح بوجود « حالة مخططة من الفوضى »،حيث تعرض على العاملين في حقل الثقافة الامكانيات المالية والتسهيلات القيمة ، ثم يتركون ليمارسوا عملية الخلق كيفما شاؤوا . وهكذا يكون

لزاما على الفنانين والخلاقين ان يتلقوا التعليمات وان يتعلموا كيف عليهم ان يعبئوا نشاطهم ابتغاء لخير المجتمع او لخير القطر او – وهو ما يغلب ان يكون الواقع – لخير الحزب . وعندما يحدث هذا فان من الطبيعي ان نحصل على قائمة طويلة من انماط الانطواء غير المكتوبة . فهناك عدد من الاشياء ليس بوسعك ان تفعلها او ان تجدها ، فان فعلت عرضت نفسك للرفض الرسمي او لسحب الامكانيات المهيأة لك من قبل . وعلى هذا فان الحضارة المنطوية ، في هذا المجال ، تنم عن بيوريتانية – عن حضارة بيوريتانية .

كيف تدخل المجلة الادبية في هذا النشاط ؟ في ابسط الحالات ، هناك مرشد واحد اولي لدور المجلة الادبية : هل تعكس على صفحاتها ما يحدث حقا او ما لا يحدث (والجانب الاخير قد يكون اهم في بعض الاحيان) في قطر او قارة ما ؟ ان النشاط الحضاري الحق هو عملية خفية يجري فيها النشاط الرئيسي تحت السطح المنظور . والمجلة الادبية بهذا المعنى يجب ان تغوص الى هذه الاعماق ، وان تلقي بشباكها عمقا واتساعا ، ثم تعرض شبكتها بصيدها المتلوي على العالم الخارجي . وبعد ان يتم العرض تلقى السمكة في المياه مرة ثانية لتنمو حتى المرة التالية . وهكذا فان على المجلة ، مثلها مثل الصياد الماهر ، ان تعرف اين تلقي شبكتها ، ان تعرف قوة الشبكة وحجمها ، وان تتصف بالحكمة في معرفتها للسمكة التي ينبغي اعادتها للبحر بحيث يكون الصيد اكبر في المرة التالية . الا ان كل هذا ليس اكثر من وظيفة واحدة من وظائف المجلة – وظيفة العارض . وهناك وظائف اخرى اهم بكثير . واريد الآن ان اوضح الطريقة الحيوية التي تعمل فيها المجلة لا على اظهار قدرة الحضارة على البقاء فحسب بل على تطويرها بشكل فعال ايضا ، وذلك بالابتعاد مؤقتا عن الموضوع وبحث طبيعة المجلة الادبية . وانا افترض ان التسليم بالحاجة للمجلات الادبية واهميتها في اي مجتمع امر مقبول متفق عليه . ان هذه المجلات ، في اسوأ حالاتها ، وسائل للعلاقات العامة على المستويين المحلي والدولي ، في الامور الثقافية والاجتماعية . واعتقد انه يمكننا ان نتقدم بتعميم جديد نظفر في هذه المرحلة ، وهو ان الحكم على نشاط واستعداد الحضارة في مجتمع ما ، على اساس عدد ونوعية المجلات التي تساعدها وتساندها هذه الحضارة ، قاعدة لا بأس بها . فكلما زادت المجلات في منطقة من المناطق ، كان ذلك افضل وادل على الصحة والحيوية .

والمجلات هي ايضا كالحضارات : فهي اما مجلات منفتحة او منطوية ؛ وهي تقدمية ، او محافظة ، او بيوريتانية ، او بطيئة الحركة ، او سريعتها . وهي في احسن حالات وعيها تعكس مميزات مجتمعاتها او نواحي ضعفها ؛ وهي في حالات عماها المطبق اشبه بصناديق لعرض غباوات محرريها . ولا يمكننا ابدا اهمال العامل الشخصي لدى بحثنا موضوع المجلات . فالمجلة ، بشكلها ومحتواها ، نتاج رئيس محريها . قليلة هي النشاطات الاخرى (باستثناء صناعة الافلام) التي تتضمن تعاون عدد كبير من المواهب المختلفة ، والتي يعزى فيها ، مع ذلك ، نجاح او فشل النتاج النهائي الى شخص واحد : هو رئيس التحرير. اذا كان لابد للمجلات ان تعاني من نقطة الضعف هذه – عامل « الضعف الانساني » – فما هي الخطوط التي يمكننا رسمها لرحلتها الآمنة المفيدة ؟

اولا ، كيف ينبغي ان توضع مقاييس التحرير؟ ان التعريفات التحريرية تنحصر في صنفين : واحدهما ، تلك التي تتعلق بادارة التحرير ، مما يتضمن اللغة التي يجب استعمالها (مجالات التوصيل) ، والمنطقة الجغرافية التي يقطنها القراء (تقرير الموقع الطبيعي ، والتوزيع ، الخ) ، والاهداف المباشرة للمجلة («لدعم مصالح العمل الافريقي في افريقيا الشرقية » مثلا ، او « لتشجيع الكتّاب الشباب» او « لتوفير مجال لمناقشة الامور الحضارية ») ؛ والصنف الآخر ميتافيزيقيا التحرير ، مما يتضمن الحقل النهائي للعمل والافتراضات الفلسفية المتبعة . ولتوضيح هذه النقطة ، نقول ان قرار ميتافيزيقيا التحرير هو الذي يقضي ، مثلا ، باتباع نظرة افريقية محلية او باتباع نظرة تمثل الوحدة الافريقية ؛ وتتضمن الاولى تغطية ضمنية لكل ما يحدث في القارة افريقيا ، بينما تحفز الثانية دينامية المثل الاعلى لفلسفة الوحدة الافريقية « لانتقاء » ما تغطيه . قد تبدو هذه الاختلافات نوعا من العبث الذي لا مبرر له ، لكنني لا اظنها كذلك : ففي آخر المطاف ، حين نموت جميعا ، سيبدو الفرق ، لاولئك الذين سيأتون لدفن عظام حضارتنا في قبورها ، فرقا بين واقع « سياسي »

وواقع حقيقي .

تنشأ النقطة الثانية عن الاولى : كيف يجب ان تؤكد حيادية التحرير نفسها ؟ ان احدى وظائف المجلة هي ان تكون مرآة مجتمعها . ومن المهم الا تتشوه الصورة حين تنعكس على صفحتها . لكن ، من الناحية الاخرى ، ليس ثمة اسوأ من سياسة تحريرية سلبية تنشر كل ما يرد عليها « لانه عكس حقيقي » لواقع الامور . وحين تصل سلبية التحرير الى حد متطرف سيعني هذا ان رئيس التحرير لن ينشر الا ما يرسل اليه من مواد ، لان هذا اكثر طبيعية من حمل الناس حملا على الكتابة . ولعل افضل ما يعبر عن حيادية التحرير هو وصفها بانها « لا تحيز عدائي » من جانب رئيس التحرير : بانها استعداد لرؤية كل جبهات النقاش ، واستعداد نظامي يسمح لذوي الافكار بان يصلوا اقصى حدود مناقشاتهم او وجهات نظرهم .

حين كان العدد الاول من « ترانزشن » في طور الاعداد للطبع اوردنا فيه متعمدين الجملة المعتادة – التي تكاد تكون اشبه بكليشيه في عالم المجلات – « الآراء التي يجري التعبير عنها ليست بالضرورة آراء المجلة ». وما املناه كان ان نتيح الحرية للكاتب ، مهما كانت آراؤه مخالفة لآرائنا ، ان يعبر بذكاء عن وجهة نظره دون ان نضع على وجوهنا « تكشيرة ليبرالية » ونمنعه عن قول ما يريد ان يقول . وهذا امر هام جدا . لكن على رئيس التحرير ان يكون محايدا فيما يتعلق بافكار الناس ، لا ان يكون هو بلا افكار . فقبوله للآراء المنفرة يجب ان تقرره قدرته على الرد عليها ، وليس لان واحدا من الناس قال : « انظر دائما الى طرفي القصة كليهما » .

وما لم يحس الكتّاب والقراء بهذا الجو من «اللاتحيز العدائي»، فلن يغريهم شيء للاتسام بالاستفزاز او حتى بالمشاكسة اللعوب، وسيكون المزاح، الذي يراقق في العادة هذه المبالغات في الاحاسيس، مفقودا بشكل ملحوظ. والاهم من ذلك هو ان ما قد يزحف الى اعمدة المجلة والحالة هذه ، هو وتر من التهذيب والرفق المقيت او الحلو، حيث يربت كل واحد على ظهر الآخر بهدوء . وعندما يحدث مثل هذا ، فخليق بالمحرر ان يقفل مجلته وينصرف. وان لم تكن الغلطة غلطة المحرر في هذا الوضع، فان الامر يشير الى ان حضارة ذلك المجتمع بالذات قد اصيبت بالعجز ، ولم تعد اكثر من مجموعة من الكسحاء يعين بعضهم بعضا .

ان مثل هذا الحياد يتضمن الاستقلال ايضا . فالمجلة الادبية هي المكان الوحيد الذي لا حاجة فيه لان يكون السياسيون مهووسين فيما يتعلق بصورتهم لدى الجماهير ، والذي يمكنهم فيه ان يشعروا بالحرية لمناقشة معتقداتهم ومذاهبهم ودوافعهم بهدوء وامانة . فالفائدة العظمى لمجلة كهذه هي انها ليست « جماهيرية » بالمعنى الذي ينطبق على الجريدة ، وانها هي موجهة للناس المفكرين، وانها في معزل عن العمليات والتوترات التجارية التي لها اهمية قصوى في الجريدة . والمجلة مجال يجب على المحرر فيه ان يستعد للمبادرة بطرح الآراء غير الشعبية (واحيانا الدفاع عنها) او الآراء المعاكسة لشعور الجماهير (او الحكومة) في ذلك الوقت ، ان كان يعتقد ان تلك الآراء ذات اهمية بالغة. وهذه واحدة من اهم الوظائف التي يمكن ان تؤديها المجلة في مجتمعاتنا النامية. اما ان كان رئيس التحرير ، من الناحية الاخرى، يعتريه القلق كلما هذر السياسيون بكلمات « فكر » و «ثقافة»، وان كان في موقف الدفاع عن وظيفته ودائم الاعتذار عن الدور الذي يؤديه ، فلا شك ان نتيجة هذا هي ان جهوده في هذا المجال ستكون عديمة الفائدة تقريبا ، وانه سرعان ما سيجد نفسه في دور المطية الحكومية – الشيء الذي تمتلك سائر الحكومات قدرا كبيرا منه في وزارات الاعلام ، دون ان تكون بحاجة للمساعدة الخارجية للحصول عليه . ان هذا المجال بالذات هو المجال الذي تتحدد فيه قيمة المجلة بنصيبها من « الانفتاح » او « الانطواء » . وهو ايضا المجال الذي يمكن فيه قياس استعداد حكومة ما للاصغاء للنقد الواعي ولتلقي الطعنات ممن تطعمهم (ان كانت تعطيهم معونات او منحا) . ولما كانت الحكومات انساقا بشرية ، فمن الممكن ، بطبيعة الحال ، ان نحزر ونتوقع طبيعة اتجاهاتها .

من الحياد للاستمرار : كيف تستمر المجلة من عدد لآخر ؟ هل تبدأ من جديد مع كل عدد ، ام تحيك خيوطا من مناقشات اثيرت في اعداد ماضية؟ كلا الامرين معا. فاحدى مهمات رئيس التحرير اليقظ هي امتلاكه للقدرة على امساك ذيول الافكار الجانبية وتوسيعها . والافكار الجانبية افكار تلقى بلا تعمد اثناء تتبع قضية

سواها بالفة الاهمية ، وهذه قد تحتوي في ثناياها على ما يكفي من البذور لان تنمو وتكبر حتى تغدو شيئا جديدا تماما ومستقلا عن الاصل . فالكاتب الذي يوشك على البدء بكتابة مقالة يضع لنفسه حدودا ، ويتعمد التعامي عن القضايا التي تتناثر عن مناقشته وتتخلف وراءها ، وتعاميه هـــذا يفيد احيانا بكونه للافكار الجديدة مثل الدم للطفيليات . ان الافكار الجانبية تولد في نوبة من عدم الانتباه ، وعلى رئيس التحرير ان يتصرف كالقابلة ان كان يعتقد ان القضية ستعود بالفائدة. وعلى هذا، ومن الوجهة المثالية،تتمكن المجلة الحسنة التحرير من تخليد نفسها ، مثل اللبن الرائب . فالعدد الواحد ينبغي ان يحتوي على ما يكفي من البذور لخلق العدد التالي .

ومن الاستمرار للدوام : تواجه المجلات الادبية في افريقيا والبـلاد النامية اعباء ومسؤوليات لا تواجهها مثيلاتها في البلاد الاخرى . فمن ناحية، يتوجب عليها ان تتمتع بالحيوية والنباهة والمرح بل والطيش احيانا (فيما نأمل) ، وان تسجل ، عرضا ودون كبت ،مافي الايام التي تعيشها من غنائية ومن رثائية.ومن الناحية الاخرى ، يتوجب عليها ، كالابن الاكبر في عائلة فقدت الاب فجأة ، ان تتصف بالنضج والمسؤولية . وهذه المسؤولية تقع ضمن مجال النشر الذي يمكن تسميته بشيء من التجاوز «الجانب الوثائقي او التسجيلي ». فعلى المجلة مسؤولية ، هي تسجيل ما كان قـد مر سابقا دون ان يلاحظ . وعليها ان تطبـع ما كان في السابق يقال شفاها . وتسجيل الاغاني والاساطير الشعبية مثل واضح على ذلك . وهكذا فان عليها ان تلعب دورا مزدوجا ، قوامه المحافظة والمبادرة في السياق الحضاري للبلد الذي تعمل فيه .

انا عندما يصبح ممكنا، في مجلة ادبية ما، ان نتوقع الآراء التي ستنشرها ونتنبأ عن الكتّاب الذين ستختارهم، اي عندما تصبح في الواقع خلية لعدد محدود من الكتّاب المختارين، دون سواهم، فان المجـلة تكون قد وصلت منتصف عمرهـــا ، وستكف عن اجتذاب حيويات الكتّاب والخلاقين الشباب. وسينظر هؤلاء الى امكنة اخرى ، او سينشئون مجلات خاصة بهم تعكس اجواءهم ومعتقداتهم بشكل ادق .

كلمة اخيرة ، عن الجمهور . لعل افريقيا، من عدة نواحٍ ، اسعد حظا من غيرها من القارات في هـــذا المضمار . فهي تطلب وتعتمد على المواهب ذات الاوجه المتعددة لرجال الادارة الشبان فيها ومهنييها وخلاقيها وليس ثمة اصناف محددة ، من نوع ما يدعى « بالثقافتين » ، يندرج الناس تحتها او يكيفون بمقتضاها . ان نخبـة المثقفين في افريقيا ان يكونوا – وغالبا ما يكونون – رجالا يستطيعون ان يواجهوا بهدوء المتطلبات التي تضعها قطعة معقدة من الشعر او مشكلات حل خيوط التحزب السياسي. والمجلة التي لاتتصف بالثقافة والتقتير بهذا المعنى ستحظى باعظم القدر لدى جمهور القراء ، وستظهر ضمنيا انها لا تقلل من اهمية كل قرائها او مدى اهتماماتهم . وان قصرت نفسها على تأدية وظيفة واحـدة من وظائفها ، وهي الاستجابة استجابة تامة للاحتياجات الثقافية والفكرية لرجال افريقيا الجدد ، فستكون قد بررت دورها في الوجود في هذا الوقت ، في هذا القرن ، فيما هو بلا شك عهد من عهود النهضة الحضارية والروحية .

اثناء مناقشتي في هذا المقال لما يجب ان تكون عليه المجلة الادبية ، اتخـذت طريقا ملتويا لاظهر كيف ان تلعب المجلة دورها في تطوير حضارة ما . وكما قلت منـذ البداية ، اذا كانت الحركات الحضارية لمجتمع ما غير واضحة وغير مرئية من السطح ، فهذا يستتبـع ان كلا من الملاحظين والمشاركين في تلك الحضارة يكونون غير قادرين هم ايضا على رؤية طبيعة ومدى ذلك النشاط رؤية كاملة . ان المجلة الادبيـــة الجيدة هي عصا الرجل الاعمى . انها تعينه على تلمس الطريق . ويمكنها ان تقوم بذلك على افضل وجـــه اذا كانت « منفتحة » في مجتمع « منفتح » ؛ ويمكنها ان تقوم بذلك بصورة اقل جودة شيئا ما – ولكن ربما بشكل اهم واخطر – اذا كانت مجلة « منفتحة » في مجتمع « منطوٍ ».

الا ان الهدف الاخير للمجلة الادبية هو المناداة بالتغير ،هو التنبؤ بالشكل الجديد الذي ستتخذه حضارتها والمجتمع الذي تمثله . وهي ستفعل هذا بان تسمح احيانا لاصوات التحيز والمشاكل المؤقتة بالارتفاع وبالتعبير عن نفسها وبان تكون منفتحة الصدر للبدع الراديكالية ، وبان ترفـــع الستر في الوقت المناسب ، لاظهار ما في الجماعة الحقة من فرادة ومن عالمية شاملة .

راجات نيوجي